حديث الدارين

د. إحسان النص

حديثي اليوم يدور حول العادلية، مقر مجمع اللغة العربية السابق، وحول الظاهرية، مدرسةً ومكتبة. وإنما اخترت أن أتحدث عن هاتين المدرستين مراعاة للحفل المقام اليوم في رحابهما.

وقد استجبنا لرغبة السيدة الوزيرة التي عزَ عليها مالحق بالدارين من إهمال وإغفال، مع مالهما من قيمة أثرية وتاريخية وثقافية عظيمة، فأرادت أن تعوّض جانباً من هذا الإهمال وتوليهما ماتستحقان من عناية، فارتأت إقامة هذا الحفل فيهما، واختارت أن يكون توقيته موافقاً لذكرى الثامن من آذار المجيدة.

وكلّ من عرف ماللدارين من شأن عظيم في تاريخنا لاجرم يخامره الأسى ويعتلج الألم في صدره حين يعاين مالحقهما من إهمال في صيانة معالمهما وآثارهما حتى أصبحتا مأوى لأعشاش الطير، وآلت جدرانهما إلى التهدم، وعبثت يد الزمان والانسان بالنقوش الرائعة التي كانت تزين سقوفهما وأبوابهما وجدرانهما.

وأودّ أن أستعيد في موقفي هذا ماضي الدارين، وأن أستنطقهما عن الأحداث التي شهدتاها، والحركة العلمية التي ازدهرت في رحابهما، ويقيني أنني سأتلقى منهما الجواب الشافي، فمن رحابهما أشتمُّ عبق التاريخ وأرج الذكريات، وأستمع إلى ماكان يدور فيهما من أحاديث، وماكان يلقى فيهما من دروس، ولن تبخلا عليّ بتلبية طلبتي. وقديماً استنطق الشعراء أطلال

الديار لتحدثهم عن الظاعنين من الأهل والأحبّة، صنيع امرئ القيس في قوله:

ألا عِم صباحاً أيها الربع وانطِقِ

وحدِّث حديث الركب إن شئت فاصدُقِ

وربما استرجع الشاعر القديم، وهو يقف على الأطلال الداثرة، الأيام التي كانت فيها هذه الأطلال عامرة بأهلها، تضجّ بالحياة والحركة، صنيع زهير ابن أبي سلمى في قوله من معلقته:

تبصّر خليلي هل ترى من ظعائن تحمّلن بالعلياء من فوق جُرثُم

علون بأنماط عتاق وكلّةٍ ورادٍ حواشيها مشاكهة الدم

وفيهن ملهىً للطيف ومنظر أنيقٌ لعين الناظر المتوسّم

إلى آخر الأبيات، وقد استرجع فيها زهير صور القافلة وماكان يدبّ فيها من حركة، وألوان الأنماط فوق الحدوج، وهي من غرر تراثنا الشعري.

وأنا أعود بذاكرة التاريخ إلى ثمانية خلت من القرون، إلى زمن العادل الأيوبي سيف الدين أبي بكر محمد بن نجم الدين أيوب، أخي السلطان العظيم صلاح الدين الأيوبي، الذي يثوي في ضريحه إلى جانب الجامع الأموي. وقد استطاع العادل انتزاع الحكم من أولاد صلاح الدين سنة سبع وتسعين وخمسمئة، وحكم حتى وفاته سنة خمس عشرة وستمئة، وإليه تنسب المدرسة العادلية الكبرى التي نلتقي اليوم في إحدى ردهاتها.

وكان نور الدين زنكي قد شرع ببنائها سنة ثمان وستين وخمسمئة لتكون مدرسة للشافعية، تكريماً للإمام قطب الدين النيسابوري، ولكن نور الدين توفي قبل أن يتمها. ثم جاء الملك العادل فأعاد بناءها سنة اثنتي عشرة وستمئة، ولكنه توفي أيضاً قبل أن يتمّ بناءها، فأتمّه ابنه المعظم عيسى صاحب

الشام.

وقد بنيت المدرسة وفق الطراز الأيوبي والدور العربية، فأنشئت في وسطها بركة، وأقيمت حولها الغرف والأواوين، وغرست الأشجار في صحنها.

وقد عرفت هذه المدرسة بالعادلية الكبرى. تمييزاً لها من العادلية الصغرى التي أنشأتها زهرة خاتون ابنة الملك العادل، وكان موقعها شرقي باب القلعة الشرقي، داخل باب الفرج.

وقد أثنى المؤرخون على الملك العادل وشهدوا له بحسن السيرة وصدق التدين وبراعة التدبير، والصبر على الشدائد، وكان مجدوداً مظفراً على أعدائه، وكان مقرّباً من أخيه صلاح الدين يفضله على إخوته ويستشيره في أموره.

ومن غريب الاتفاق أنه حدث سنة توليه الحكم مجاعة في مصر لم يشهد الناس مثلها من قبل، لأن ماء النيل غاض فجفت الأراضي الزراعية واستحكم الغلاء وانتشرت الأوبئة. وينقل لنا ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة أموراً لاتصدّق وقعت في تلك المحنة، فكان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمّه على طبخه ليأكلاه، وكان الرجل يدعو صديقه وأحبّ الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله. وكان بعضهم يستدعي الطبيب بدعوى معالجة مريض لديه فيذبحه أهل الدار ويأكلونه، وكانوا يختطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم. وقد هلك في هذه المجاعة مئات الألوف من أهل مصر وهاجر أكثرهم إلى البلاد المجاورة.

وللعادل هذا أخبار طريفة ذكرها المؤرخون، فقد وصفوه بالنهم الشديد للطعام حتى كان يأكل في الوقعة خروفاً صغيراً، ويأكل رطلاً دمشقياً من خبيص السكّر قبل أن ينام. أُحضر إليه يوماً أربعون حملاً من

البطيخ فكسره جميعاً والتهم أكثره. ومع افراطه في الأكل كان قلما تعتريه الأمراض، فذكر طبيبه أنه لازمه سنين كثيرة ولم يحتج إليه العادل إلا مرة واحدة يوم التهم البطيخ.

ولمّا أدركته المنية بقرية عالقين، وهو في الخامسة والسبعين من عمره، أُخفي خبر موته على الناس ريثما يحضر ابنه المعظم عيسى، وكان العادل قد وزّع مملكته على أولاده قبل وفاته. وقد دفن أول الأمر في قلعة دمشق ثم نقل ابنه المظفّر جثمانه إلى العادلية، فضريحه بها اليوم.

وقد غدت العادلية منذ إنشائها المدرسة الأولى في دمشق، ودّرس فيها جِلّة من العلماء البارزين، وبدئ التدريس فيها عام تسعة عشر وستمئة. وبين أيدينا وصف للدرس الأول فيها، فقد تولى التدريس فيها أولا يومئذ القاضي جمال الدين المصري، وتصدّر المجلس السلطان المعظّم عيسى، وجلس القاضي عن شماله والعالم جمال الدين الحَصيري، شيخ الحنفية عن يمينه، واحتشد في المجلس العلماء والأعيان، فكان ذلك اليوم من أيام دمشق المشهودة.

توالى على التدريس في العادلية الكبرى علماء كبار أمثال قاضي القضاة شهاب الدين الخوبي وشرف الدين المقدسي وزين الدين الفارقي وقاضي القضاة تقيّ الدين السبكي وجلال الدين القزويني. وقد جعلت العادلية مدرسة للفقه الشافعي والفقه الحنفي مع علوم أخرى، وكان من يدرّس فيها يرتب له سكن في إحدى غرفها. ولم تكن العادلية مدرسة فحسب وإنما كانت تعقد فيها مجالس القضاء.

ودارت عجلة الأيام وانتهى المطاف بالمدرسة العادلية بأن غدت مقراً للمجمع العلمي العربي الذي غُيّر اسمه فيما بعد إلى مجمع اللغة العربية.

ويذكر محمد كرد علي أن العادلية تعرّضت للحريق على أيدي التتار

مرّتين، أحرقها في المرة الأولى أحد أحفاد هولاكو وهو غازان التتري، سنة ست وتسعين وستمئة، فقد أخلاها التتار من النازلين فيها ثم أحرقوها في جملة ماأحرقوا من مدارس ومعالم. وفي المرة الثانية أحرقها التتار كذلك في غارتهم على دمشق سنة ثمان وسبعين وسبعمئة، ومع ذلك فقد بقي جداراها قائمين يتحديان الغزاة ونوائب الدهر، ولكن بناء العادلية انتقص منه جانب من طريق الاستيلاء فلم يبق منها إلا ثلثاها.

وفي الحقبة التي امتدت زهاء سبعة قرون امتدت يد الحدثان إلى بناء العادلية، فبدأ البلى يسطو على معالمه، وتداعت بعض جوانبه، وتضاءلت منزلة العادلية العلمية، فكذلك كانت حاله حينما أصدرت الحكومة الفيصلية العربية أمرها بتسليم بناء العادلية إلى المجمع. وقد عقد المجمع أولى جلساته في العادلية في الثلاثين من تموز سنة تسع عشرة وتسعمئة للميلاد، وهي توافق الثالث من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة وألف للهجرة: وعلّق المرحوم الأستاذ كرد علي على ابتداء عمل المجمع في العادلية بقوله: «وكأن المولى تعلّقت إرادته فقضى أن لايُخلي العادلية والظاهرية من علم ينشر، وأدب يذكر، فاختارهما مباءة للمجمع العلمي، يقيم فيهما سوق العلم والأدب، بعد الكساد على النحو الذي كانتا عليه». وفي القاعة التي نحن فيها الآن كانت تلقى المحاضرات وتعقد جلسات المجمع لاستقبال أعضائه العاملين.

على أن إدارة المجمع لم ترض لمقرّها أن يبدو في الحالة الزريّة التي آل إليها، فتولت أمر إصلاحه وترميمه، وأنفقت في سبيل ذلك مالاً كثيراً، فأصلحت قبة القاعة التي دفن فيها الملك العادل، وعهد إلى مهرة النجارين والنقاشين والمهندسين والمزخرفين بالعمل في أبوابه وفق الطراز العربي، وتعاون في إنجاز ذلك فنيّون من العرب والأجانب، وممن كان لهم الفضل في ذلك السيد توفيق طارق، والمهندس الفرنسي آمي، واستغرق ترميم البناء

وإصلاحه زهاء سبع سنوات، فكان من يزوره في عام أربعة وأربعين وتسعمئة وألف يأخذه العجب من فخامة البناء ودقة الصنعة وروعة الزخارف. ونحن الآن، بعد ماينيف على الخمسين عاماً، نعاين ماحلّ به من إهمال وبلى فيحزّ في نفوسنا مآل إليه أمره، وأملنا أن يتاح لنا، بمعونة أولي الأمر، إعادة هذا المعلم الأثري العظيم إلى سابق عهده وأن نعيد إليه نضارته وتألقه.

تلكم هو حديث العادلية، ولنتحدث الآن عن الظاهرية، وبناءاهما متقابلان وكان موقعهما بين باب الفراديس وباب الفرج، في الطريق المفضي إلى باب البريد.

كان بناء العادلية إحدى مآثر الدولة الأيوبية، ولما قامت الدولة المملوكية في أعقاب الأيوبية حذت حذوها في ابتناء المدارس ودور الحديث والبيمارستانات والمساجد، والمدرسة الظاهرية أحد هذه المعالم البارزة.

وقد عرفت هذه المدرسة بالظاهرية الجوانية تمييزاً لها من الظاهرية البرّانية التي شادها بدمشق الملك الظاهر غازي، ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان موقعها خارج باب النصر، بين نهري بانياس والقنوات، بمحلة المنيبع، وقد درست.

وفي ظنّي أن باني الظاهرية تعمّد أن يجعل مكانها يقابل العادلية على سبيل التحدي أو على سبيل الاقتداء، فهما الآن أختان متقابلتان تترامقان بعيون أطفأت الأحداث تألّقهما، وتتشبثان بموقعهما تتحدّيان عاديات الدهر، وكأني بهما تتناجيان فتقول إحداهما للأخرى:

يا أختُ بتنا للعفاء مطيّةً وتلعّبت بمصيرنا الأقدار
بالأمس كنا للعلوم مثابةً يرتادنا العلماء والأحبار
تتزاحم الطلاب في قاعاتنا للعلم تسعى والعلومُ بحارُ
واليوم بتنا للحمام مراتعاً فتراكمت من ذرقه الأقذارُ
هل من غيور ينبري لمغاثنا يُشجيه ماآلت إليه الدارُ
فيزيلُ عنا مابنا ويعيدنا نزهو علينا نضرة ووقارُ

على أن الظاهرية تصغر أختها العادلية بنيّف وستين عاماً، فقد شُرع ببنائها سنة ست وسبعين وستمئة، وأطلق عليها اسم الظاهرية مع أنها ليست مما بناه الظاهر بيبرس، على كثرة مابناه من مدارس، ومنها المدرسة الظاهرية بالقاهرة، ولكنها بنيت لتكون المثوى الأخير للظاهر. ولهذا عرفت بالظاهرية.

والملك الظاهر بيبرس البندقداري ركن الدين، صاحب مصر والشام، والمتوفى سنة ست وسبعين وستمئة للهجرة، هو من سلاطين المماليك العظام، وسيرته متداولة مشهورة فلاحاجة للإفاضة في الحديث عنها، ومن أبرز مآثره صدّه المغيرين على بلاده من الفرنجة والتتار.

ومن طريف المفارقات أن الظاهر أخذ من بلاد القبجاق (القوقاز اليوم) صغيراً، وتداوله المشترون حتى انتهى به المطاف إلى أن اشتراه الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي، فنسب إليه، ثم صادره الملك الصالح نجم الدين أيوب من البندقداري فيما صادره منه. ودارت الأيام دورتها وترقى بيبرس في المناصب إلى أن تولى السلطنة فأصبح أستاذه علاء الدين في جملة أتباعه وأمرائه.

ولاحاجة بنا إلى الإطالة في الحديث عن بيبرس، فهو فارس عين

جالوت التي هزم فيها التتار أقبح هزيمة، وهو يوم أغرّ في تاريخ الأمة العربية الإسلامية، وكان الملك يومئذ المظفر قُطُز. وقد سطّر التاريخ لبيبرس صفحات متألقة من الوقائع والمآثر. فشاد العشرات من المدارس والبيمارستانات والقلاع في مصر والشام، واستخلص من الفرنجة عدداً من البلدان ومنها صفد والباشورة والشقيف، ووسع ملكه بضم بعض البلدان إلى مملكته ومنها بَرقة والكرَك. وفتح بلاد النوبة ودنقلة التي استعصت على الفاتحين قبله، وأوقع قرب حمص بالتتار هزيمة أخرى منكرة بعد وقعة جالوت، وكان قائد التتار يومئذ أبغا بن هولاكو، كما أخرج التتار من حلب بعد أن ملكوها. ومن مآثره إعادته الخلافة إلى العباسيين ببغداد ثم بالقاهرة، بعد أن قضى عليها التتار ومن مآثره كذلك أنه لما وقع الغلاء بمصر سنة اثنتين وستين وستمئة أمر بتوزيع الفقراء على الأغنياء وألزمهم إطعامه ورتب للفقراء مؤونة يومية. وكان الظاهر لايتعصب لمذهب دون آخر ولذلك ولّى قاضياً لكل من المذاهب الأربعة، وكانت الغلبة في الشام للمذهبين الشافعي والحنفي.

وفي سنة ست وسبعين وستمئة توفي الملك الظاهر بدمشق بعد مرض لم يمهله طويلاً، وكانت مدة حكمه ثمانية عشر عاماً، فاتفق الرأي على إخفاء خبر موته لئلا تضطرب أمور الناس، وحمل سرّاً إلى القلعة وجعل في تابوت علّق في بيت من بيوت البحرية، وكان ولده السعيد في القاهرة، فاستدعي على عجل وبويع بالسلطنة بعد أبيه.

والملك السعيد هو ناصر الدين أبو المعالي محمد بركة قان، وكان أبوه قد جعله سلطاناً على مصر، فلما توفي أبوه أصبح سلطاناً لمصر والشام وعمره تسع عشرة سنة.

وكان أول ماقام به الملك السعيد حين قدم إلى دمشق البحث عن تربة

يدفن فيها أباه، وكان الظاهر قد أوصى أن يدفن على الطريق السابلة، في موضع قريب من داريا، ولكن ولده رأى أن يدفنه داخل أسوار دمشق، فاختار لذلك دار العقيقي المواجهة للعادلية وابتاعها وهدمها وأعاد بناءها، ودفن أباه في القاعة المجاورة للمدخل إلى اليمين، وجعل سائر البناء مدرسة للشافعية والحنفية. ولم يطل بقاء الملك السعيد، فقد وقعت الجفوة بينه وبين فريق من المماليك يرأسه سيف الدين قلاوون، وخرجوا عن طاعته وحصروه في قلعة القاهرة، فاضطرّ أن يخلع نفسه من السلطنة سنة ثمان وسبعين وستمئة بعد أن تولاها نيفاً وسنتين. وأقطعه قلاوون الكرك فجعلها مقراً له. ومالبث أن توفي أواخر سنة ثمان وسبعين وستمئة فدفن أول الأمر في موضع مؤتة ثم نقل جثمانه إلى الظاهرية ودفن إلى جانب أبيه، فهما الآن متجاوران في القبة الظاهرية. وقد حامت الشكوك حول السلطان قلاوون في أنه دبّر لقتل الملك السعيد بالسم.

وكان قلاوون قد نصب أخا الملك السعيد سُلامش سلطاناً بعد أخيه وجعل نفسه أتابكاً له، وكانت سن سلامش سبع سنوات، ولكن قلاوون مالبث أن خلعه وتسلطن مكانه.

يتفق المؤرخون في الثناء على الملك السعيد لما اتصف به من حسن الخلق والجود والعدل في الرعية والإحسان إلى الفقراء، والتواضع، والنفور من الظلم والعسف. ولهذا كان حزن الناس عليه عظيماً وغضبوا بسببه على السلطان قلاوون سنوات ثم رضوا عنه.

فالدار الظاهرية التي نقيم حفلنا اليوم في رحابها هي من آثار الملك السعيد ولكنها نسبت إلى الملك الظاهر لأنه دفن فيها. على أن الملك السعيد لم يتح له اتمام البناء فأتمه بعده السلطان قلاوون. ومن المحقق أن الملك السعيد اختار دار العقيقي لمواجهتها العادلية، ليكون البناءان متقابلين فيكون منظرهما معاً أدعى إلى إعجاب الناظرين، وقد خصصت للظاهرية أوقاف كثيرة للإنفاق عليها وجعلت مدرسة للمذهبين الشافعي والحنفي وداراً للحديث.

وقد عهد ببناء الظاهرية إلى مهندس عربي اسمه إبراهيم بن غانم، نقش اسمه على واجهة البناء، ومن أعماله الأخرى ترميمه القصر الأبلق القائم إلى جوار الميدان الأخضر بدمشق، وكان مقراً للملوك ينزلونه إذا قدموا دمشق، وقد ظل قائماً حتى هدمه تيمورلنك سنة ثلاث وثمانمئة.

وقد بذل هذا المهندس غاية جهده لإتقان البناء لينافس به بناء العادلية فجاءت الواجهتان الغربية والجنوبية آية في فن العمارة، فقد بني مدخل البناء بأحجار بيض ووردية وفي أعلاه المقرنصات الرائعة، وفوق الباب كتابات بالنسخ المزهر ذكرت فيها الأوقاف المحبوسة على الظاهرية، وذكر في السطرين الأخيرين اسم بانيها وهما الملك السعيد والسلطان قلاوون في النص الآتي: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذه التربة المباركة والمدرستين المعمورتين المولى السلطان الملك السعيد أبو المعالي محمد بركة قان، ابن السلطان الشهيد الملك الظاهر، المجاهد ركن الدين، أبي الفتوح بيبرس الصالحي. أنشأها لدفن والده الشهيد ولحق به عن قريب، فاحتوى الضريح على ملكين ظاهر وسعيد. وأمر بإتمام عمارتها السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي، قسيمُ أمير المؤمنين، خلّد الله سلطانه».

ويلفت النظر في هذه الكتابة وصف الملك الظاهر بالشهيد، ولعل في ذلك إشارة إلى ماثار من شكوك في سبب وفاته وذهاب بعض المؤرخين إلى أنه مات بالسم.

وقد مرّت الظاهرية منذ إنشائها بأطوار عدة، كانت لدى إنشائها داراً للحديث واحتوت على مدرستين احداهما للشافعية والثانية للحنفية، وقد رتب لمن كانوا يدرسون بالظاهرية غرف لمأواهم، وكانت مدرسة الحنفية إلى يمين الداخل، بعد قبة الظاهر، ومدرسة الشافعية في الجهة الشرقية، وبينهما دار الحديث، ولايزال الإيوان الجنوبي الذي خصص للمدرسة الحنفية ماثلاً حتى اليوم بحرابه وقبته. أما الإيوان الشرقي فقد اندثرت معالمه. وقد طرأ على البناء بعد إنشائه مابدّل معالمه فاندثرت بعض معالمه وتبدل شكل بعضها الآخر.

يذكر المؤرخون أن التدريس في الظاهرية بدأ في شهر صفر من عام سبعة وسبعين وستمئة للهجرة. وقد حضر الدرس الأول نائب السلطنة أيدمر الظاهري، وكان يوماً مشهوداً حضره الفقهاء والعلماء وأشراف الناس، وألقى الدرس الأول الشيخ رشيد الدين الفارقي، مدرّس الشافعية، وتلاه الشيخ الحنفي صدر الدين سليمان المشهور بابن أبي العز الأذرعي، ولم يكن بناء المدرسة قد اكتمل يومئذ.

وقد توالى على التدريس في الظاهرية منذ ذلك الحين علماء وفقهاء بارزون. ويذكر النُعيمي في كتابه «الدارس في تاريخ المدارس» أسماء من توالوا على التدريس في الظاهرية بعد الفارقي والأذرعي، ومنهم كمال الدين ابن الزَمَلكاني، وعلاء الدين بن القلانسي، والقاضي أبو الفتح النابلسي المعروف بابن الشهيد، وشمس الدين الذهبي، وقطب الدين موسى اليونيني، جلال الدين القزويني خطيب دمشق.

ظل التدريس نشطاً في الظاهرية حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري، ثم بدأت مكانتها العلمية تتضاءل في القرن الثالث عشر، وانطفأت الجذوة العلمية التي كانت متقّدة فيها طوال قرون، وآل أمرها في النهاية إلى أن أصبحت مدرسة ابتدائية تشرف عليها وزارة المعارف، وتحوّلت أواوينها إلى صفوف للتلاميذ، وأقيم فيها مطعم لإطعامهم، وعدا بعضهم على دار الحديث فاتّخذها سكناً له.

ثم شاء الله أن ينقذ الظاهرية من الوضع المتردّي الذي آلت إليه. في الحقبة الأخيرة من العهد العثماني وجدت ظاهرة هدّدت التراث العربي بالضياع والاندثار، فقد كثرت الإغارة على المخطوطات والكتب الموقوفة المودعة في طائفة من مدارس الشام وخزائن الأوقاف، سواء من أهل البلاد أو من الأجانب الطامعين في الاستيلاء على كنوزنا الثقافية ومخطوطاتنا

النادرة، وحزّ هذا الأمر في نفوس طائفة من العلماء الغيورين على تراثنا، وبرز من بينهم أسماء العالمين الجليلين الأستاذ سليم البخاري والشيخ طاهر الجزائري، وكان الجزائري يومذاك مفتشاً لمعارف ولاية سورية، وهو صاحب الفضل الأول في إنشاء المكتبة الظاهرية، فاتصل هذان العالمان الجليلان بالجمعية الخيرية التي كانت تعنى بتدريس العلوم الدينية وغيرها، وكان يرأسها يومذاك الشيخ علاء الدين ابن عالم دمشق الشيخ محمد عابدين، فأطلعاها على مايتعرض له تراثنا من نهب وسطو، فبادرت الجمعية بتقديم طلب إلى الوالي العثماني مدحت باشا ذكرت فيه أن المخطوطات والكتب الموقوفة في خزائن المدارس على طلاب العلم قد فقد أكثرها من جرّاء السطو عليها، وعرضت عليه فكرة جمع هذه الكتب في مكان واحد آمن ليتاح حفظها وصيانتها واستفادة طالبي العلم منها. وكان مدحت باشا من الولاة الذين حمد أهل الشام سيرتهم فيهم، فلما وقف على الأمر بادر بالكتابة إلى السلطان عبد الحميد ليأذن له بجمع كتب الوقف في مكان واحد، واستطاع الحصول على موافقة السلطان على طلبه، وبدأت الخطوات الأولى في جمع كتب الوقف في عهده، ولما عزل عن ولاية الشام وحلّ محله الوالي حمدي باشا، أثار العلماء لديه موضوع الكتب الوقفية، وكان حمدي باشا قد حوّل الجمعية الخيرية إلى مجلس معارف وجعل على رأسه مفتيّ دمشق العلامة محمود حمزة، فقام هذا بمساع شاركه فيها الشيخ علاء الدين عابدين والشيخ سليم العطار ومحمد المنيني لإقناع الوالي الجديد بفكرتهم، واقترحوا عليه أن يكون مكان المكتبة تربة الملك الظاهر لإمكان حراستها، وعرضوا جعلها داراً للكتب يؤمها من يودّ المطالعة، فوافقهم حمدي باشا وأصدر أمره بإنفاذ ذلك في الخامس عشر من شباط سنة ثمانية وسبعين وثمانمئة وألف للميلاد الموافقة لسنة خمس وتسعين ومئتين وألف

تهجرة، ووضع المكتبة تحت إشراف هؤلاء العلماء ورتب لها محافظين ورسم بتأليف جمعية لهذه الغاية أطلق عليها اسم «جمعية المكتبة العمومية».

وقد نشطت هذه الجمعية إثر ذلك إلى جمع المخطوطات والكتب من مظانها في مكتبات مدارس دمشق والتكية وغيرها.

وقد ذكر من أرّخوا للمكتبة الظاهرية أن المخطوطات والكتب التي وضعت في القبة الظاهرية يومئذ جمعت من عشرة أماكن أهمها المكتبة العمرية التي كانت بمدرسة شيخ الإسلام محمد بن أحمد بن أبي عمر المقدسي (ت ٦٨٢هـ)، وكانت بصالحية دمشق، ويذكر ابن بدران في «منادمة الأطلال» أن أحد الطلاب النجديين سرق من هذه المكتبة حمل خمسة أجمال وفرّ بها، ونقل سائر ماكان بها إلى الظاهرية وعدّته اثنان وستون وستمئة كتاب. ومن هذه الأماكن مدارس آل العظم: عبد الله وسليمان وأسعد، ومنها المكتبة المرادية ومكتبة الأوقاف ومكتبة الملاّ عثمان ومكتبة بيت الخطابة والمكتبة السميساطية والمكتبة السياغوشية. وقد بلغ عدد ماجمع من الكتب في المرحلة الأولى ألفين وأربعمئة وثلاثة وخمسين كتاباً. وبعد أن جمعت هذه الكتب في قبة الملك الظاهر سجلت ووضعت تعليمات تتصل بطرق الاستفادة منها ومطالعتها.

وقد نيط أمر الإشراف على المكتبة العمومية بدائرة الأوقاف، فكانت هي التي تعيّن المحافظين والآذن وتدفع لهم مرتباتهم.

وظلّ الأمر على هذه الحال حتى قامت الحكومة العربية في شباط من عام تسعة عشر وتسعمئة وألف فألحقت المكتبة الظاهرية بديوان المعارف وأطلقت عليها اسم دار الكتب العربية، وديوان المعارف هو النواة الأولى للمجمع العلمي العربي، فأخذ هذا الديوان يبتاع الكتب والمخطوطات ويضيفها إلى محتوى المكتبة. ثم اتسعت أعمال الديوان فقسم إلى قسمين:

الأول يختص بأعمال المعارف عامة، والثاني يختص بأمور اللغة والمكتبات والآثار. وصدر في الثامن من حزيران من العام نفسه أمر الحاكم العسكري علي رضا الركابي بتسمية هذا القسم المجمع العلمي العربي، فتمّت ولادة المجمع بهذه الوثيقة.

ومنذ ذلك الحين تمت الخطوات الآتية:

أولاً ـ اتخذ المجمع بناء العادلية مقراً له وعهد برئاسته إلى المرحوم الأستاذ محمد كرد علي، وعهد إليه الإشراف على دار الكتب العربية ودار الآثار الملحقة بها.

ثانياً ـ ألحق المجمع أول الأمر بالجامعة السورية ثم طلب رئيس المجمع استقلال المجمع عن الجامعة فتم له ذلك في الخامس عشر من آذار سنة ست وعشرين وتسعمئة وألف.

ثالثاً ـ ازداد عدد الكتب في الظاهرية وأصبح من العسير جمعها كلها في قبة الملك الظاهر فاضطر القائمون على المجمع إلى تخصيص إحدى قاعات العادلية قاعة للمطالعة ونقلت إليها أهم المراجع التي يحتاج إليها القُراء. وقد بلغ عدد الكتب المخطوطة والمطبوعة التي احتوت عليها المكتبة عام ثمانية وعشرين وتسعمئة وألف نيّفاً وثلاثة عشر ألف كتاب.

رابعاً ـ كانت الظاهرية لاتزال تؤوي المدرسة الابتدائية التي أنشأها الولاة الأتراك فيها وكان وجودها يعرقل عمل المكتبة وإدارتها، فسعى المجمع في إخلاء الظاهرية من المدرسة الابتدائية فوُفق إلى ذلك بعد التغلب على العقبات الكثيرة التي اعترضت إنفاذ هذا الأمر، وتم ذلك أواخر عام سبعة وعشرين وتسعمئة وألف.

خامساً ـ سنّت إدارة المجمع لدار الكتب الظاهرية نظاماً داخلياً وعيّنت

لها أمينين وعهد إلى الأستاذ سعيد الكرمي عضو المجمع بالإشراف عليها.

سادساً ـ قامت إدارة المجمع بترميم الدارين العادلية والظاهرية لجعلهما صالحتين لاحتواء المجمع ودار الكتب والآثار التي وضعت فيهما.

سابعاً ـ صُنفت الكتب وفق نظام حديث ووضعت لها فهارس ووضع نظام داخلي للمطالعة فيها، وقد عُدّل هذا النظام بعد ذلك وفق مقتضيات تطور الأحوال.

ثامناً ـ تمت بعد الثامن من آذار خطوة هامة هي توسيع بناء الظاهرية لتستوعب مزيداً من الكتب والقراء فاستملك جزء من العقار المجاور للمكتبة ومن حمّام الملك الظاهر.

تاسعاً ـ توالى على إدارة المكتبة عدد من الأساتذة أولهم عضو المجمع الأستاذ سعيد الكرمي وجاء بعده الأساتذة الشيخ طاهر الجزائري، حامد التقي، حسني الكسم، الدكتور يوسف العش، عمر كحالة، أحمد الفتيح، عبد الهادي هاشم، رحمهم الله جميعاً، ثم تولاها آخرون بعد ذلك، ومنصب المدير شاغر الآن بانتظار اختيار المدير المناسب.

عاشراً ـ إلى جانب جمع الكتب وجّه المجمع عنايته إلى جمع الآثار العربية المتناثرة في شتى البقاع في بلاد الشام، وقد تعرّضت هذه الآثار للسطو من قبل الأجانب والدولة التركية، وكان لجمال باشا مشاركة كبيرة في السطو على هذه الآثار ونقلها إلى المتاحف التركية،وقد خصص المجمع أربع غرف في العادلية لجمع هذه الآثار ثم نقلت بعد ذلك إلى المتحف الذي أنشأته الحكومة السورية.

حادي عشر ـ في عام واحد وثمانين وتسعمئة وألف انتقل المجمع الذي تحول اسمه إلى مجمع اللغة العربية، إلى بنائه الجديد في حي المالكي.

ثاني عشر ـ بعد تأسيس مكتبة الأسد أواخر عام أربعة وثمانين وتسعمئة وألف صدرت الأوامر بنقل جميع مخطوطات الظاهرية وطائفة من كتبها إلى مكتبة الأسد لتوافر أسباب صيانة المخطوطات النفيسة فيها.

هذا عرض سريع لمسيرة دار الكتب الظاهرية منذ نشأتها حتى اليوم، ولم أشأ أن أدخل في التفصيلات فهي مثبتة فيما أُلف من كتب ومانشر من أبحاث عن الظاهرية.

رحم الله كل من شارك في بناء الدارين وكل من عمل فيهما من أعضاء المجمع وغيرهم.